كانت ستمنع من هذه المبايعات في تاريخ المسلمين، وسيقال لها: امكثي في بيتك»[1].

ومن المؤسف أننا مازلنا ننظر إلى المرأة على أنها مواطن من الدرجة الثانية «إن جاز لي التعبير»، وربما يعود هذا إلى أثر التخلف والانزواء الذي عانت منه المرأة من مخلفات العصر التركي طيلة ما يقرب من ثلاثة قرون.

إن المصلح الاجتماعي في كل زمان ومكان، يجعل نصب عينيه دائمًا قضية تعليم المرأة، وأن تتبوأ مكانها اللائق من الحضارة، فلقد كانت هذه رسالة المصلحين في عصرنا الحديث، «رفاعة رافع الطهطاوي» فلقد كان داعيًا إلى تعليم المرأة في كتابه «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين». وسار على نفس الدرب الشيخ محمد عبده، ثم بعد ذلك دافع عن المرأة بجرأة وشجاعة قاسم أمين أو ما مشهور به «تحرير المرأة»، وهو ما سأعرض له في الصفحات القادمة.

تحرير المرأة عند قاسم أمين:

قاسم أمين وتحرير المرأة (1863م - 1908م)[2].

الخلفية الفكرية لقاسم أمين:

لعلي لا أكون مبالغًا إذا قلت إن هناك بعض الدارسين لا يعرفون فكر

(1) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة الوافدة، الناشر دار الشروق، طبعة أولى، ص66.

(2) بالنسبة لحياته ونشأته يمكن الرجوع إلى كتاب قاسم أمين للدكتور محمد عمارة، الناشر دار الشروق، ص15 - 27.

قاسم أمين، ولم يجشموا أنفسهم عناء الوقوف على فكره، وهناك البعض ممن لو سمع عن «قاسم أمين» لحكم على فكره جملة بالكفر والزندقة، ونحن تعلمنا من أصول المنهج العلمي، النقد الموضوعي، والنقد البناء، والقراءة البريئة غير محكومة بأيديولوجيا معينة أو أي أحكام مسبقة، ومن هنا سوف أقف وقفة يسيرة على فكر الرجل، وموقفة من قضية تحرير المرأة.

قُدِرَ لقاسم أمين أن يكون في فترة تاريخية- تحمل بذور أفكار الوعي والتحرر من قبضة الاستعمار الإنجليزي.

كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده قد تواعدا على أن يلتقيا في باريس لمواصلة جهودهما، من أجل تكتل المسلمين من أجل محاربة الاستعمار في مصر، ولم يضيعا وقتهما، فبدأ بتأليف جمعية العروة الوثقى السياسية والتقى قاسم أمين بهما في فرنسا، واتخذه محمد عبده مترجمًا له، على أن يعلمه اللغة الفرنسية بعد ذلك. وانضم قاسم أمين إلى جمعية العروة الوثقى ورأى فيها تنفسًا لأشجانه وآماله[1].

في 13 مارس سنة 1884م صدر العدد الأول من جريدة العروة الوثقى، وكانت الأفكار كلها للسيد جمال الدين الأفغاني، والأسلوب للشيخ محمد عبده، وتحدث العدد الأول عن ضعف المسلمين لافتراق الكلمة، وعن امتصاص الدول الاجنبية والمستبدين أموال الشعوب واستنزاف ثرواتهم، مثلما حدث في مصر، ومن هنا فكر المسلمون والمثقفون منهم في إصدار هذه الصحيفة بمدينة باريس.

(1) د. ماهر حسن فهمي، قاسم أمين، ص41.

قرأ قاسم أمين كل أعداد العروة الوثقى، وتأثر بها تأثرًا بالغًا، دفعه إلى أن يكتب بعد حين بمثل هذه الروح الدفاقة إلى تعلمها منها[1].

وعندما ألف «الدوق داكور» كتابه «مصر والمصريين» سنة 1893م، يسخر منها من ضعف الروح الوطنية في مصر وأن الإسلام سبب تأخر المسلمين، قرأ قاسم أمين هذا المؤلف، وأصيب بحمى لازمته عشرة أيام ولم يهنأ للرجل بال ودافع عن هذه المفتريات في كتاب أصدره في أواخر عام 1893م بالفرنسية، وهكذا استطاع الرجل أن يرد على نزعات التعصب الأحمق من هذا الرجل.

نقول هذا كمدخل موجز لموضوعنا تعليم المرأة المسلمة ودورها في التحدي الحضاري، وأن المفكرين الثوار دائمًا أفكارهم تسبق زمانهم، وقد نختلف معهم في رأي أو أكثر من الآراء - لكن - ليس من الأمانة العلمية في شيء ولا من المنهج الموضوعي أن نصادر على فكر هؤلاء، وأن ننصب من أنفسنا محاكم تفتيش تذكرنا بمحاكم التفتيش في العصور الوسطى.

يبدأ قاسم أمين مستهلاً كتابه «تحرير المرأة»، المشهور للعامة والخاصة بقوله: «إني أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معي في حالة النساء المصريات، وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التي وصلت إليها وهي ضرورة الإصلاح فيها. هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة، كنت خلالها وأمتحنها وأحللها حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وزاحت غيرها، وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها، وتنتهي إلى مزاياها، وتذكرني

(1) المرجع السابق، ص 42.

بالحاجة إليها، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والفكر»[1].

الدعوة إلى إصلاح حال المرأة في عصره:

إذن، بداية الدعوة عند قاسم أمين هو إصلاح حال المرأة، لأنه ينعي حالها وما آل إليه مصيرها في عصره، من انحطاط وجهل، وتخلف في ميادين الحياة، بل يعتبر هذا أساس المشكلات التي يواجهها المجتمع المصري، فيقول: «وهذا هو الأصل فيما نشهده ونؤيده الاختيار التاريخي من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها، وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها، فقد علمنا أن حال المرأة في ابتداء تكون الجمعيات الإنسانية كانت لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء، وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم بعده أكبر أولادها. وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء، ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها. وكان من المباح عند العرب قبل الإسلام أن يقتل الآباء بناتهم وأن يستمتع الرجل بالنساء من غير قيد شرعي ولا عدد محدود، ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل إفريقيا وأمريكا المتوحشة، وبعض الأمم الأسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة، وأنها لا ينبغي أن تعيش بعد زوجها، ومنهم من يقدمها إلى ضيفه إكرامًا له كما يقدم أحسن متاع يمتلكه»[2].

أما في البلاد التي ارتقت إلى درجة عظيمة من التمدن فإنا نرى النساء

(1) قاسم أمين، تحرير المرأة، الناشر دار المعارف، بدون تاريخ، ص29.
(2) قاسم أمين، المرجع السابق، ص34.